

واقع علم الاجتماع في الوطن العربي بين أزمة التبعية.. وأفاق الاستقلالية

The reality of sociology in the Arab world between the crisis of dependency... and the prospects for independence

إبراهيم الذهبي *

جامعة الوادي (الجزائر)، brahiimdhahbii@gmail.com

تاريخ الاستقبال: 2021/12/01؛ تاريخ القبول: 2022/01/06؛ تاريخ النشر: 2022/04/16

ملخص: تشهد النظرية الاجتماعية في العالم و الوطن العربي كثير من التحليلات و التطبيقات في اطر المجتمعات و عبر محاور التاريخ ولعل النظرية من حيث إسنادها إلى النظريات الغربية في تخصص علم الاجتماع 3 حالت دون ان نجعلها ممارسة في بيئتها و أسس مجتمعاتها التي لا تراعي في الوطن العربي كثيرا من مقومات الهوية العربية و الدين و العادات و التقاليد و سبل العيش و كذا موازين المجتمع وفق الأنظمة التي تحكم أنساقه لنعرج خلال هذا المقال على النظرية الاجتماعية عموما في الغرب و النظرية في إسقاطاتها و النظرية في آفاقها المعرفية التي تنبعث من صميم المجتمع العربي

الكلمات المفتاح : علم الاجتماع - الوطن العربي - التبعية - الاستقلالية

Abstract Social theory in the world and the Arab world witnesses a lot of analyzes and applications in the frameworks of societies and across the axes of history. Perhaps the theory in terms of its attribution to Western theories in the field of sociology 3 prevented us from making it a practice in its environment and the foundations of its societies that do not take into account in the Arab world Many of the components of Arab identity, religion, customs, traditions, ways of living, as well as the scales of society according to the systems that govern its systems. Let us glimpse during this article on social theory in general in the West, the theory in its projections, and the theory in its cognitive horizons that emanate from the core of Arab society

Key words: Key words: sociology - the Arab world - dependency - independence

لا شك أن كل مجتمع من المجتمعات يتسم بمجموعة من الخصائص والعادات والتقاليد والقيم والقوانين التي تميزه عن غيره وتنظم شؤونه، ومن ثم فإن فهم هذه العناصر يعتبر غاية في الأهمية من أجل تنظيم الحياة الاجتماعية وفهم مختلف الظواهر الاجتماعية التي تشهدها هذه الأخيرة.

وكان لابد لتحقيق هذه الغاية إخضاع هذه الظواهر الاجتماعية للمنهج العلمي من أجل فهم القوانين التي تحكم هذه الظواهر المتغيرة، وهذا ما تبحث فيه مختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية ولعل من أبرز تلك العلوم التي أوجدتها الإنسان هو علم الاجتماع، الذي يهدف إلى الدراسة العلمية للظاهرة الاجتماعية.

لقد سعى علم الاجتماع منذ نشأته الأولى مع بدايات التفكير الخلدوني في دراسة الظاهرة الاجتماعية وصولاً إلى ما يقدمه علماء العصر الحديث في هذا المجال، إلى فهم الظواهر الاجتماعية ومحاولة استخلاص القوانين التي تفهم وتفسر هذه الظواهر ومن ثم تحقيق التنبؤ بحدوثها مستقبلاً، غير أن هذا السعي لهؤلاء العلماء اصطدم بكثير من العقبات والصعاب التي جعلت منه يفشل في تحقيق هذه الغاية المنشودة وخاصة في الوطن العربي.

لقد واجه هذا العلم العديد من العقبات في البلاد العربية لعل أبرزها تبعية هذا العلم للأطروحات الغربية التي ظهرت وترعرعت في بيئة تختلف كل الاختلاف عن بيئتنا زمانياً ومكانياً مما جعل علم الاجتماع في البلاد العربية يفشل فشلاً ذريعاً في تحقيق غاياته التي وجد لأجلها.

وسنحاول في هذه الورقة أن نسلط الضوء على هذه الإشكالية من أجل معرفة أزمة تبعية علم الاجتماع في الوطن العربي للأطروحات الغربية وانعكاس هذه التبعية على المردود العلمي المقدم في معاهد وأقسام علم الاجتماع في هذه البلاد وتقديم تصور مقترح من نحول لم اجتماع عربي معاصر.

1. مظاهر التبعية :

■ الإحباط والخيبة : واقع علم الاجتماع في الوطن العربي يُساعد على بلورة اهتمامات وقيم الطلاب الذين يلتحقون بأقسامه بتوقعات وآمال عريضة، يريدون أن يلمسوا قضايا المجتمع الحقيقية فيجدون أن المحاضرات والمؤلفات والكتب والمداولات والتقاشات تنتمي إما ذات صلة بالمجتمعات الغربية أو الشرقية التي تختلف كل الاختلاف عن مجتمعاتنا العربية والإسلامية، ولا يجدون في المقررات الدراسية والأنشطة العلمية ما يروي غليلهم، فيصابون بالإحباط وخيبة الأمل، ثم يُفاجؤون بأن سني أعمارهم ضاعت في شعوعة باعتراف أساتذتهم وأئمة أساتذتهم من علماء الغرب، ومما يؤكد لهم ذلك أنهم يتخرجون فيجدون أنفسهم غير فاهمين للمجتمع، وعاجزين عن التعامل معه في ضوء ما تعلموه لهذا دعا الأستاذ الطاهر لبيب علماء الاجتماع في وطننا العربي إلى الحد من الانبهار الساذج والتوكل الكلي على علم الاجتماع كمواقف تجعل منه عصا سحرية علمية.

■ غياب غير مؤثر: علم الاجتماع كأحد العلوم الاجتماعية المهمة لم يفرض نفسه على صعيد المعرفة والواقع، على اعتبار أنه لم يقدم ما كان ينتظر منه لدراسة آمال هذا المجتمع وآلامه وهذا ما أكدته الأستاذ سعد الدين إبراهيم الذي ذهب إلى أنه حتى لو غاب علماء الاجتماع من الوطن العربي فإن أثر هذا الغياب لن ينعكس عن المجتمع لا بالسلب ولا بالإيجاب، وهذا ما أكدته أيضاً الأستاذ أحمد الجوهري الذي اعترف بقصور علم الاجتماع وعجزه عن تقديم رؤية شاملة عن الإنسان والمجتمع في الوطن العربي.

■ غياب الفعالية والمكانة: علم الاجتماع في بلادنا العربية افتقد للفعالية في تقديم ما ينتظره الواقع الاجتماعي في هذه البلدان، وبقي هذا العلم حبيس قاعات التدريس في الجامعات والمعاهد ولم يقدم أي شيء يذكر، إضافة إلى أن علم الاجتماع في الوطن العربي لم يفرض نفسه في الواقع بسبب سطحية دراساته وعدم فعاليتها لذلك لم يعطى المكانة المطلوبة والمناسب له من قبل الجهات الحكومية والمؤسسات الخاصة. (ر.م ماركيفر، شارلز بيج، 2000، ص 338)

- المبالغة في التنبؤ: يبالغ رجال علم الاجتماع في الوطن العربي في مسألة التنبؤ وهي مبالغة غير منطقية، وهذا ما أقره أصحاب هذه المسألة في الغرب، فهم يعترفون بأن مسألة التنبؤ بالمستقبل مسألة غير ممكنة في أي زمن، ولا أحد يعرف ما الذي سيحدث غدا، وأفضل ما في جعبة علم الاجتماع لا يستطيع أن يحقق هذا التنبؤ بالظواهر الاجتماعية.
- صراع مقبوت: هو ما يميز نخبة كبيرة من علماء الاجتماع في الوطن العربي، تجسد هذا الصراع في انتماءاتهم وولائهم وقناعاتهم الإيديولوجية، لذا فإن البناء الفكري لهؤلاء تميز بالتشتت والتشوش، تجلت بعض صوره في تغيير أفكارهم مع تغيير سياسة الدولة واعترافيهم بأنهم غير قادرين على تشخيص واقع مجتمعاتهم تشخيصا دقيقا، انشغلهم بانتماءاتهم الإيديولوجية.
- علم استعماري: علم اجتماع الغربي الذي يدرس في جامعاتنا هو علم عقائدي وأداة استعمارية لفهم والسيطرة على هذه المجتمعات العربية الإسلامية، وهذا ما يؤكد جاك بيرك بقوله أن علم الاجتماع هو علم استعماري، ومن ثم فإن الاستعمار وبعد رحيله عن مستعمراته في هذه البلدان ترك من الترتيبات المؤسسية والفكرية ما يعيد سيطرته وهيمنته والتبعية له، وهذا ما تجلّى بوضوح في المغرب العربي حيث كان علم الاجتماع وخاصة المدرسة الفرنسية مهيمنة على أقسام هذا العلم في مختلف الجامعات والمعاهد العربية في هذه البلاد على غرار الجزائر والمغرب وتونس.
- الاعتراف بالتبعية: وأقرّ رجال علم الاجتماع في بلادنا بأن علم الاجتماع أعدّ بحثاً وتدرّساً ليكون عقل رجال الاجتماع العرب تابعاً للعقل السوسيولوجي الغربي، سواء في منهجية التفكير أو تصوّر مهام علم الاجتماع.
- تعميق الهوية بين أبناء الوطن الواحد: أسهم علم الاجتماع في تحقيق الأهداف الفرنسية الرامية إلى تعميق الهوية بين العرب والبربر، والعمل على تطوير البربر في اتجاه الحضارة المغربية وليس الإسلام، عمل على إعادة تركيب وتنظيم حياة المغرب العربي في ضوء المراتب الاستعمارية.
- معاداة الدين والعقيدة: لقد سعت من أجل تحقيق هذه الغاية العديد من المؤسسات الأمريكية في بلادنا العربية، وتجلّى ذلك من خلال ترجمة العديد من المؤلفات المضادة للدين والعقيدة على غرار ما قامت به مؤسسة فرانكلين التي تكفلت بطبع الكتاب المشهور لـ . ماكيفر وييج . هذا الكتاب الذي اعتبر تفسيرات الدين بأنها تفسيرات جامحة لا بد أن ينقيها العلم، حيث اعتبر المؤلفان أن الدين يفرق الشعوب ويقطع أوصال الشعب الواحد، يعتبران الدين عقيدة ضيقة الأفق غير متسامحة لا تستند إلى العقل، ويريد المؤلفان دينا بلا سلطة أخلاقية . الربا، الاحتكار، الخمر، الزنا ويحل بدلا عنها قواعد الأخلاق الاجتماعية، كما اعتبر المؤلفان في كتابهما المجتمع أن: " لما كان الإنسان في العصور والأوساط السابقة على الحركة العلمية، قد نظر إلى قوى ما فوق الطبيعة نظرة الخائف الجاهل المسيء لتفسير ظواهر الطبيعة فإن بعض قواعد السلوك التي فرضها الدين عليه لم تكن أبدا انعكاسا صادقا لحاجاته الاجتماعية، بل إنها في الأغلب قد انخرقت بالعلاقات الاجتماعية ورحبت أو أوحى بنوع من السلوك مقبوض للمصالح الاجتماعية .. والأوامر المتضمنة في قواعد دينية يصح أن تكون مستوحاة من اعتبارات اجتماعية أكثر مما يكون مبعثها دينيا، إذ أنه في المرحلة التكوينية للدين يكون من السهل جعل كلمة الله تعبيرا للشعور بحاجة اجتماعية".
- مصادر هذا العلم: المصادر الثلاثة التي استمد منها علم الاجتماع أفكاره وأطره النظرية هي نفس مصادر الحضارة الغربية : المنهل اليوناني، المنهل اليهودي المسيحي، والبيئة الأوروبية ذاتها، فأين نحن منها؟.
- بناء مترنح وأسس هشّة: البناء الذي ارتكز عليه علم اجتماع يرجع بصورة أو بأخرى إلى الأفكار والأطروحات التي قدمها الرواد الأوائل أمثال باريتو الإيطالي كاثوليكي، دوركايم الفرنسي يهودي وماكس فيبر الألماني بروتستانتي.... فالعلوم بالنسبة لهم بمثابة النموذج الذي يهيئ التفكير الصحيح تتمثل في مجموعة من المعتقدات التي تنظم المجتمع وتضمن تماسكه غير أن هذه المعتقدات اهتزت بعد ظهور التناقض الواضح بين الدين والعلم وهذه الحقيقة اعترف بها هؤلاء العلماء. (ر.م. ماركيفر، شارلز ييج، 2000، ص 338)

الدين والعلم عند علماء اجتماع الغرب: فرضت مشكلة العلاقة بين الدين والعلم نفسها على هؤلاء الرواد الكبار الثلاثة ، فنجد دوركايم يقول : "إن العلم يستطيع أن يفهم الدين وأن يفسر قيام معتقدات دينية جديدة " . أما باريتو فقد عبر بطريقة ساخرة قائلاً: " لا تحفل بالدين، لأن الرواسب لا تتغير، وسوف تنشأ معتقدات جديدة دوماً"، وذهب فيبر إلى أن هناك تناقض قائم بين مجتمع يقوم على العقلانية وبين الحاجة إلى الاعتقاد والإيمان، حيث يقول في هذا السياق: "إن الطبيعة كما يفسرها العلم وكما تعالجها التكنولوجيا ليس فيها متسع لسحر الدين وأساطيره القديمة يجب أن ينسحب الإيمان ليعيش في عزلة مع الضمير".

■ القطيعة بين الواقع والقيم: حدثت نتيجة إخضاع علماء الاجتماع الغربيين الدين للدراسة العلمية وهذا من شأنه أن يحطم الإيمان الديني فالافتراضات الأساسية التي قام عليها علم الاجتماع هي: العالم المحسوس، الخبرة الحياتية، ومن ثم فإن مشكلات الإنسان تكمن في داخله وفي فهمه لنفسه بعيداً عن المؤثرات الخارجية فحدث انفصال بين الواقع والقيم تحت دعوى الموضوعية والدقة المنهجية.

فهم الإسلام في ضوء التراث الغربي: لقد سعى علماء الاجتماع في البلاد العربية إلى إخضاع الإنسان والمجتمع والدين إلى الفكر العلمي فقدموا لنا رؤى غريبة حول الدين وقراءات خاطئة له، فذهبوا إلى أن الدين يجب أن يبدأ بتجربة حسية، وأن الدين هو انبثاق من الواقع بأبعاده السياسية والاقتصادية والتاريخية فتحول الإسلام في نظر هؤلاء إلى دين يكرس الطاعة لتقاليد جامدة، والمؤمن عندهم مثقل بالتقاليد الدينية التي ترسخت في عصور التخلف، إن هذه القراءات الغريبة للدين وصلت إلى حد اعتبار التفكير الغيبي تفكيراً سلفي رجعي مغرق في مآهات الماضي، وصف النبي ﷺ بالكاريزمية كما اسمها ماكس فيبر ومن ثم فإن رسالة النبي ونبوته ما هي إلا صفات خاصة وكاريزما قوية أكثر منها مسألة وحي الله (مركز دراسات الوحدة العربية، 1990)

■ نظريات عنصرية: تسعى النظريات الغربية إلى التسويق إلى سيطرة الغرب الأقوى على النظام العالمي المستند إلى تقسي دولي ينظر إلى التنظيمات الاجتماعية غير الغربية أنها أدنى وغير قابلة للتجديد والتطور، ومن ثم فإن مهمة الغرب هي تحديث العالم وتمدينه وهذا ما أكدته الأستاذ عادل حسين، فالغرب هو الغاية الوحيدة للتقدم الإنساني كما يرى دوركايم، وتفوق الغرب هو مسلمة أساسية من مسلمات ماكس فيبر .

يقول الدكتور أحمد خضير أن العلوم الاجتماعية صورت لنا على أنها علوم عالمية تقوم على الموضوعية، وتعتمد على قاعدة قوية من المعلومات عن سائر المجتمعات البشرية، وهذا تصور أو إدعاء غير صحيح، لأنها تعتمد فقط على خبرة المجتمعات الغربية وحدها، قبلنا النظريات الغربية في بلادنا على أساس أنها علم، تعتمد على المنهج العلمي الذي يقوم على الاستقراء والملاحظة لا الحدس والميتافيزيقا والقول المأثور . (أحمد خضير ص 138، 2000)

صورت لنا النظريات الغربية كما يقول جلال أمين على أساس أنها تتجاوز حدود الزمان والمكان وواقع الأمر أنها كانت تنقل لنا تحت ستار العلم قيم العالم الغربي وأفكاره ليس لصالح العلم وإنما لصالح دول الغرب. نخلينا عن ديننا وعن عقيدتنا وعن تصوراتنا عن الكون والإنسان والحياة واستبدلناها بقيم الغرب وأفكاره وتصورات وأخلاقياته، لنكتشف في النهاية أن ما يدعونه بالنظريات الغربية لا علاقة له بالعلم (أحمد بامية العربية، ص 12 ص 14، 1990)

وقد لخص كيث ديكسون حالة النظرية في علم الاجتماع بقوله: " إن أي معرفة بالكتابات التي تدور حول نظريات علم الاجتماع عموماً تكشف بوضوح أن بناء النظرية في علم الاجتماع إذا حكمنا عليه بالمعايير المأخوذ بها في العلوم الطبيعية يفتقر لوجود أي منطق متماسك، فهناك اختلافات كثيرة ليس فقط حول مناهج البحث الاجتماعي وإنما حول طبيعة علم الاجتماع ذاته .. إن بإمكاننا أن نثبت أن علم الاجتماع رغم مضي مائة عام على تحقيقه لدرجة نسبية من الاحترام الأكاديمي لا زال لم يتوصل بعد إلى توجه موحد مقبول للممارسة المهنية، وكنتيجة لذلك فإننا نجد

أماننا كثرة كاثرة من النظريات المتنافسة، حيث لم يتحقق السيادة لأي إطار بعينه، ولم يعد من الممكن أن نعزو هذه الحالة إلى الزعم بأن علم الاجتماع لا زال في طفولته، ففرض حداثة العهد (الطفولة) لا يفسر لنا شيئاً وإنما هو يشير إلى الحالة التي عليها علم الاجتماع (ابو بكر عبد القادر ص 171، 2006)

22. واقع البحوث الاجتماعية عند الغرب:

إن الإنتاج العلمي والبحثي الضخم الذي أنتجه علماء الاجتماع في الغرب والذي انبهر به علماؤنا بشدة وتعلقوا به كثيراً، قد فشل فشلاً ذريعاً في مهده وهذا باعتراف علماء الاجتماع الأمريكيين والأوروبيين فقد أقر الأمريكيون أن الآلاف المؤلفات من البحوث الاجتماعية التي أجروها ونشروها لا قيمة لها من وجهة النظر العلمية ولم تقدم الإضافة المطلوبة إلى رصيد المعرفة الإنسانية، وقد توصلوا إلى القناعات الآتية كما يوجزها أحمد خضر (أحمد خضر، مركز دراسات الوحدة العربية، 1990)

1. يعترف الأمريكيون بحرصهم على الوضعية المتعصبة، وبأنهم يفضلون المفاهيم عن القيم الدائمة، وأن الكثير من الذي يدرس في علم الاجتماع غير ذي فكر عميق، يقول القليل عن أي شيء يتعرض له، وأنه أشبه بخوض فقايعات كبير مقبول ظاهرياً، لا يدخل أي من موضوعاته تحت إطار التحقيق العلمي المعني به، كُتِبَ المداخل في علم الاجتماع تجمع رهانات عديدة والقليل منها هو الذي يُعطى تفسيرات منطقية جادة.

2. يُقَرُّ العلماء الأمريكيون بأن علم الاجتماع الأمريكي يُعاني من فقر في استخدام الحقائق والخبرات الحياتية، والافتقار إلى الارتباط بالأحداث الكبرى المهمة، وأنه يُعبر عن خبرة المجتمعات الأوربية أكثر مما يعبر عن خبرة المجتمع الأمريكي نفسه، يقوم علم الاجتماع الأمريكي على حسابات رياضية، ويهمل التحليل، ويجمع الحقائق طبقاً للمفهوم الشعبي والتفسيرات الشعبية، توسع الأمريكيون في إعداد علماء اجتماع، ولم يصاحب ذلك ارتفاع في المستوى العلمي، هناك أكثر من عشرة آلاف عالم اجتماع أمريكي، لكلٍ منهم علم الاجتماع الخاص به.

3. إن أحدث ممثلي مدارس علم الاجتماع مثل: (هايماس) و(فيلمر)، قد تخلّوا عن الماركسية، أمّا (كورش) الذي كان قد صاغ المبادئ الأساسية للعلاقة بين الماركسية والنظرية الاجتماعية المعاصرة في مقالٍ شهير له في عام 1937 فقد تخلّى عن الماركسية في أواخر حياته، وقال ما نصّه: "لم يعد من المفيد الآن طرح قضية الصدق النظري لكتابات ماركس وإنجلز؛ ذلك أن كل المحاولات التي سعت إلى إعادة صياغة النظرية الماركسية على نحوٍ تتلاءم مع أهداف ثورة الطبقة العاملة قد باءت بالفشل".

4. - أن الفكر الماركسي قد عجز عن ملاحقة التغيرات المتلاحقة، ومن ثم فقدت مفاهيمه وتصوّراته قدرتها على تفسير المواقف المختلفة، أن السبب في جمود الفكر الماركسي يعود إلى ضيق نطاقه وجمود مفاهيمه ومقولاته. فعلم الاجتماع الماركسي فشل في تفسير التغيرات التي طرأت على البناء الاجتماعي في البلاد الرأسمالية؛ حيث تطوّر النظام الرأسمالي في غير الاتجاه الذي تنبأ به ماركس. إضافة إلى ذلك فقد عجز عن فهم التغيرات التي حدثت في المجتمعات الاشتراكية ذاتها، والتي يخضع الاقتصاد والصناعة فيهما لسيطرة الدولة، فأدّى هذا إلى الشك في الأهمية التي أعطاها ماركس للملكية الخاصة، وعجز علم الاجتماع الماركسي عن فهم قضية استغلال الدول المتقدمة للدول المتخلفة، فبالرغم من أن شعوب العالم الثالث تمثل بروتاريا عالمية، وأن الطبقة العاملة في الدول المتقدمة تشكل طليعة النضال عند ماركس - فإن الأخيرة تُشارك في عملية استغلال قرينتها في هذه الدول المتخلفة.

3. فشل الفيزياء الاجتماعية:

لقد تغنى علماء الاجتماع كثيرا بضرورة إخضاع الظاهرة الاجتماعية والإنسانية إلى مناهج العلوم الطبيعية من أجل استخلاص قوانين دقيقة لفهم هذه الظواهر وتفسيرها ومن ثم التنبؤ بحدوثها مستقبلا، وهذا ما نادى به أوجست كونت في النصف الأول من القرن التاسع عشر ميلادي عندما كتب يقول: "إنه لدينا الآن فيزياء سماوية، وفيزياء أرضية، ميكانيكية أو كيميائية، وفيزياء نباتية وحيوانية، ومازلنا بحاجة إلى نوع آخر من الفيزياء هو الفيزياء الاجتماعية، حتي يكتمل نسقنا المعرفي عن الطبيعة. وأعني بالفيزياء الاجتماعية ذلك العلم الذي يتخذ من الظواهر الاجتماعية موضوعا للدراسة، باعتبار هذه الظواهر من روح الظواهر العلمية والطبيعية والكيميائية والفيسيولوجية نفسها، من حيث كونها موضوعا للقوانين الثابتة (أبو بكر عبد القادر ص 173، 2006)

غير أن السعي وهذه النزعة فشلت باعتراف العديد من علماء الغرب، ونذكر فيما يلي بعض من اعترافات هؤلاء العلماء:

1. قال (إلود): "إن مناهج العلوم الطبيعية بما في ذلك الإحصاء لا تُمكننا من فهم الظواهر الاجتماعية".
2. قال (وليم توماس): "إن السلوك الإنساني يتصف بالتعقيد والتنوع بحيث تُصبح مقارنته بالظواهر الطبيعية نوعاً من العبث".
3. أرجع (باسي) فشل العلوم الاجتماعية الحديثة في دراسة الإنسان دراسةً كليةً شاملة إلى حرصها الشديد على تبني الأساليب الوضعية.
4. أمّا (فيلبسون) فقد قال: "إن الظواهر الطبيعية تختلف عن الظواهر الاجتماعية اختلافاً بيّناً، وعالم الطبيعة يدرس أصلاً ظواهر لا تتخذ بناءً معرفياً مسبقاً، فهي ظواهر لا تعرف القصد والإرادة، وعلاقته بهذه الظواهر علاقة خارجية تختلف تماماً عن علاقة العالم الاجتماعي بالظواهر التي يدرسها".
5. ويقول (رد فيلد): "إن هناك فارقاً بين ما هو إنساني وما هو غير إنساني، إن دراسة الثقافة في ضوء مفاهيم الفيزياء تعني: تفتيت الإنسانية إلى أجزاء ليست هي الأفراد والجماعات، إن تبني نظريات ونماذج العلوم الطبيعية وتطبيقها في المجال الاجتماعي يُصاحبه تقدّم في معرفتنا بالمجتمعات (أحمد خضر، 2000، ص 138)
6. وقال المؤرخ الشهير (ديلثي): "إن علم الاجتماع لن يكون علماً على الإطلاق، وإن مناهج العلوم الطبيعية التي تعتمد أساساً على التفسير ليست كافية لفهم الظواهر الاجتماعية فهماً عميقاً"، وقال في موضع آخر: "إن هناك فارقاً كبيراً بين العلوم الطبيعية التي تفسر ظواهرها من الخارج، والعلوم الاجتماعية التي تحاول فهم قضاياها من الداخل؛ لهذا يبدو علم الاجتماع وكأنه بحث مصطنع يحاول دراسة المجتمع بالاعتماد على مناهج لا تصلح إلا لدراسة الطبيعة"
7. وهاجم (هوسرل) سيطرة هذه النزعة المنطوقية التي أدّت في نظره إلى تحوّل العالم الحقيقي المتمثّل في الحياة اليومية إلى مجموعة من المقولات الرياضية المجردة.

أمّا (رايت ميلز): الذي قال عنه علماء الاجتماع: "إنه إذا كان القرن التاسع عشر قد أنجب ماركس وفير، فإن القرن العشرين لم ينجب سوى ميلز"، فقد وجه انتقادات حادة للنزعة الأمبريقية السائدة في العلوم الاجتماعية وقال: "إن علم الاجتماع بتبني هذه النزعة الضيقة إنما يحكم على نفسه بافتقاد تصوّر حقيقي للإنسان والمجتمع، فبدلاً من محاولة الوصول إلى مثل هذا التصوّر، يحاول الأمبريقون تحويل علم الاجتماع إلى علم طبيعي يستخدم نفس المعادلات الرياضية الشائعة في الفيزياء... إن الاتجاه الأمبريقي يحاول إخضاع الحقيقة الاجتماعية للمعالجة الإحصائية والمعملية، وبجرد المشاكل الاجتماعية من صفاتها السوسيولوجية ويفسرها بعوامل سيكولوجية (أحمد خضر، 2000، ص 20)

. مشكلة الأمبريقية في علم الاجتماع:

وتعني الأمبريقية أو المنهج الأمبريقي في البحث اكتساب المعرفة من خلال الملاحظة في التعرف على الأشياء والظواهر وتجربتها بواسطة الحواس، وهي بذلك تسعى إلى تحويل علم الاجتماع إلى علم طبيعي يستخدم نفس المعادلات الرياضية الشائعة في الفيزياء، ومن ثم فإن هذا الاتجاه في علم

الاجتماع يحاول إخضاع الحقيقة الاجتماعية للمعالجة الإحصائية والمعملية ويجرد المشاكل الاجتماعية من صفتها السوسيولوجية ، وقد هُوجمت النزعة الأمبريقية في علم الاجتماع من زوايا عديدة نذكر منها ما يلي:

أولاً: أنها تخلو من أيّ قضايا لها قوّة التوجيه، فنفتقد بذلك الرؤية الواضحة والفهم الجيد لطبيعة الإنسان والمجتمع، ولا نُقدّم عنهما أيّ حقائق، بل فشلنا بصفة عامّة في إقامة علاقة قويّة بين المعرفة والعمليات الاجتماعية، وفصلنا فصلاً شديداً بين الواقع والقيم.

ثانياً: تعتمد الأمبريقية على التجزئة، فتدرس ظواهر معيّنة منفصلة ومنزوعة من سياق المجتمع.

ثالثاً: تبسط الأمبريقية قوانين المجتمع لتصبح أقوالاً وقضايا تكرارية ليست على درجة عالية من التعميم، فيتعدّر تطبيقها على المشاكل الكبرى.

رابعاً: أنّ الأمبريقية تُعبر عن موقف إداري أكثر منه موقف عملي، فما تتمتع به من قوّة إدارية تُخفي ما تُعانيه من نقص عقلي، وقد انتقل البحث بالأمبريقية من الوحدات الكبرى إلى بحث الوحدات الصّغرى، وهذا الاتجاه من شأنه أن يُؤدّي إلى تصفية تدريجية لعلم الاجتماع

(ابو بكر عبد القادر ص 173، 2006)

خامساً: أنّ محاولات إجراء دراسة أمبريقية عن الواقع الاجتماعي تُشير إلى أنّ أصحابها لديهم تصوّرات معيّنة عنه؛ ومن ثمّ فإنّ هذه الافتراضات السابقة سوف تُؤثّر على طابع الدراسة التي يجرّونها على الواقع، وأنّه إذا كان الهدف الأسمى من علم الاجتماع هو اكتشاف طبيعة العالم الاجتماعي فكيف يقوم ذلك على افتراضات مسبقة عن هذا الواقع؟! إنّ علماء الاجتماع سينظمون أبحاثهم في ضوء هذه الافتراضات المسبقة، وسوف يعتمد طابع علم الاجتماع عليها، وسوف يتغيّر إذا تغيّرت.

سادساً: أنّ النزعة الأمبريقية أغرقتنا في التفصيلات الوصفية الجزئية عندما اهتمّت بمشكلات الإدارة والانحراف والحراك الاجتماعي، لقد عجزت أنّ تُقدّم - باستثناءات محدودة - إسهاماً حقيقياً في فهم البناء الاجتماعي.

سابعاً: عن الإدعاء بإمكانية الاستفادة من نتائج بحوث الدراسات الأمبريقية في مشروعات رجال الأعمال وغيرهم، يقول علماء الاجتماع: "إنّ علم الاجتماع عندما يُقدّم خدماته لرجال الأعمال لا يستطيع أن يستخلص لهم نتائج على درجة عالية من التخصص أو النوعية ذات القدر من الثبات أو العمومية، بل يعجز عن تقديم نظرية مجرّدة يمكن تطبيقها على نطاق المشروع".

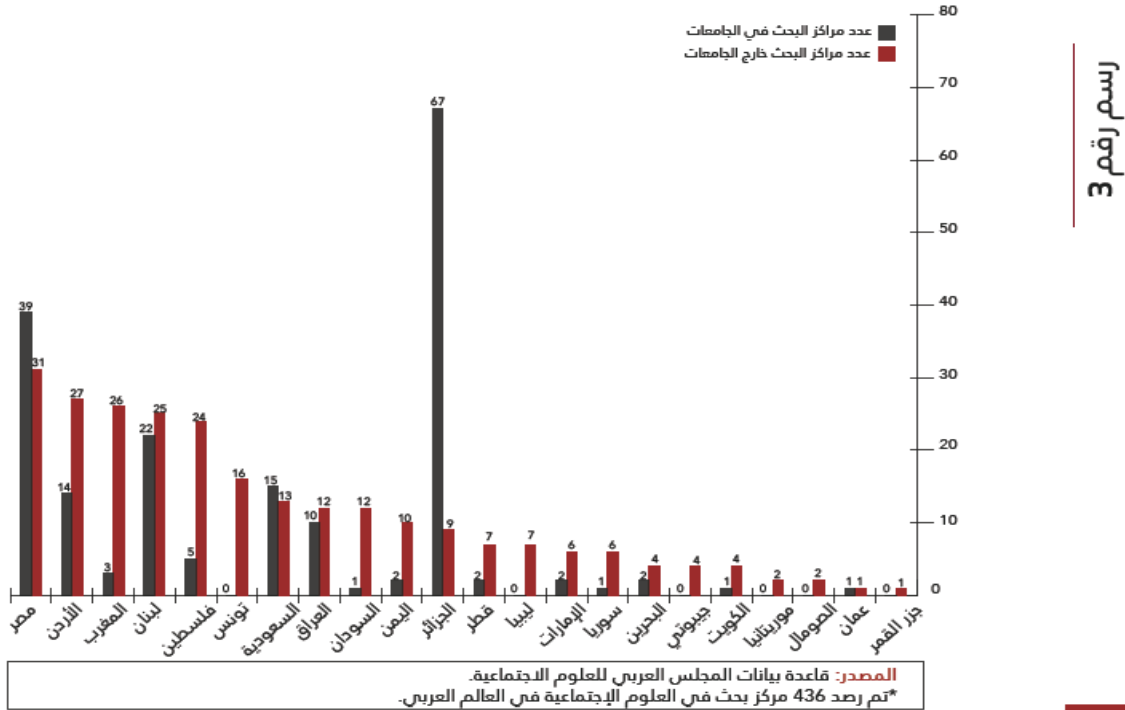
ورغم فشل وسقوط الأمبريقية في بلادها ومسقط رأسها، فإنّ طلابنا وباحثينا لا يزال البعض منهم غارقاً حتى أذنيه في هذه الأمبريقية، ولا نجد بحثاً ولا رسالة إلا محشوة باستمارة استبيان وفروض بحث، ومتغيرات مستقلة وأخرى معتمدة، وجماعة تجريبية وأخرى ضابطة، وجداول ورسوم بيانية ونسب مئوية، ومعاملات ارتباط ((ابو بكر عبد القادر ص 179، 2006)

5. حضور علم الاجتماع في الجزائر:

عرض فيما يلي بعض إحصائيات تتعلق بحضور العلوم الاجتماعية في الجامعات الجزائرية والعربية: 1

عدد الجامعات المانحة شهادات عليا (ماجستير ودكتوراه) في أحد العلوم الاجتماعية حسب البلد*

عدد مراكز البحث في العلوم الاجتماعية ضمن الجامعات وخارجها (حسب البلد)*



كما يتضح من المنحنيات السابقة فإن الجزائر احتلت الريادة بين الدول العربية في أقسام وكليات العلوم الاجتماعية في الجامعات الجزائرية وحتى المراكز البحثية والشهادات المقدمة للطلبة سواء الماجستير أو الدكتوراه، و يمكننا أن نقدم فيما يلي بعض المؤشرات عن واقع العلوم الاجتماعية في الجزائر:

1. التنامي الكمي لعدد الدارسين في العلوم الاجتماعية، وما يرافقه من تزايد في عدد كليات العلوم الاجتماعية في معظم الجامعات الجزائرية.
2. يلتحق في الغالب بكليات العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية في معظم الجامعات الجزائرية باستثناء علم الاقتصاد الذي لديه كليات خاصة به، الطلبة ذوي المعدلات المتدنية في البكالوريا، والذين لم يسعفهم الحظ في الالتحاق بالكليات العلمية.
3. هشاشة التكوين البيداغوجي لغياب الكفاءات العلمية التي تتمكن من الربط بين الدراسات النظرية في العلوم الاجتماعية والواقع الاجتماعي الجزائري، إضافة إلى غياب مراكز بحثية تتبنى الدراسات الأكاديمية التي تجرى على شكل دكتوراه للاستفادة منها في السياسات العامة وتنمية المجتمع.
4. التمثيلات السلبية التي يحملها الطلبة في الجزائر عن العلوم الاجتماعية، كسهولة الحصول على الشهادات دون بذل مجهودات معرفية حيث تكاد تنعدم نسبة الرسوب في بعض الأقسام كعلم الاجتماع، والاعتقاد بأن العلوم الاجتماعية لا دور ولا مستقبل لها في المجتمع الجزائري، فترسخت لديهم فكرة مفادها أنه لا جدوى علمية من دراسة العلوم الاجتماعية.

5. النظرة الدونية التي يحملها بعض الإداريين في الجامعة الجزائرية خاصة من ذوي التكوين العلمي في العلوم الطبيعية عن العلوم الاجتماعية، حيث تتحول هذه النظرة إلى ممارسات بيروقراطية كالتضييق على إجراء الملتقيات العلمية وحصول الباحثين في العلوم الاجتماعية على المنح الدراسية وغيرها (إبراهيم عبد الرحمن، 1996، ص58)
6. طغيان النموذج الأوروبي والفرنسي خاصة في العلوم الاجتماعية في كل من الجزائر وتونس والمغرب، بسبب تداول اللغة الفرنسية في هذه البلدان وسهولة الاتصال بالمراكز البحثية الفرنسية (أحمد خضير، 2000، ص20)

6. آفاق الاستقلالية: نحو علم اجتماع عربي معاصر

يعاني مجتمعنا العربي الإسلامي العديد من المشكلات الحياتية، والتحديات التي تواجه هذه المجتمعات في عصر العولمة الشاملة التي تغلغت في شتى المجالات وانعكست على البناء الاجتماعي والفكري و القيمي لها، هذه التحديات فرضت على مختلف العلوم الاجتماعية مواكبتها وإيجاد حلول لها، ويعتبر علم الاجتماع من بين أهم تلك العلوم التي ينتظر منها تحقيق تلك الأهداف المنشودة.

لكن لا يمكن تحقيق ذلك دون التخلص من هذه التبعية الغربية التي قيدت هذا العلم منذ عقود طويلة جعلته حبيسا للمدارس الغربية، والسعي نحو إيجاد علم اجتماع عربي إسلامي يتماشى وخصوصيات مجتمعاتنا العربية والإسلامية.

وقد قدمت العديد من المحاولات في هذا السياق منذ سنوات نحو علم اجتماع عربي، ومن هذه المحاولات ما قدمه الدكتور عبد القادر عرابي الذي قدم تصوره حول آفاق علم اجتماع عربي معاصر والتي حددها في عشرة آفاق هي كالآتي:

1. آفاق معرفية ومنهجية:

فالمناهج هي أساس العلم والفكر، لذا لا بد من تطوير الآفاق المنهجية والمعرفية لعلم الاجتماع العربي حتى يمكننا تطوير هذا العلم، ويقصد الدكتور عبد القادر عرابي بالآفاق المنهجية على حد قوله: " نقصد بالمنهج رؤيتنا للعالم والكون وفلسفتنا الحياتية، هذا هو البعد الفلسفي للمنهج، وهناك البعد المتعلق بأدوات البحث، فهذه التقنيات يوجهها الفكر، فهي علمية. من هنا، فإن ما عرف بالخلاف بين المناهج، ليس خلافا حول التقنيات، قدر ما هو خلاف حول الفكر والأيدولوجيات التي تمثلها هذه التقنيات. فالمنهج هو طريقتنا في الحياة والتفكير وعلاقتنا ببعضنا مع بعض وهو يرتبط من ثم بالثقافة والمجتمع، فهناك علاقة بين المنهج والثقافة، من جانب، وبين المنهج والعقل من جانب آخر، فمن دون عقل وثقافة ومجتمع مفتوح لا تتطور النظريات والمناهج (أبو بكر أحمد باقادر ، ص 171 ، 2006)

من دون شك أنه لا يمكن إيجاد علم اجتماع عربي إلا بالعمل على تطوير المناهج الكيفية والكمية المعمقة والسطحية، ذلك لأن جل مشاكلنا الحياتية الاجتماعية من ذاتنا وتاريخنا وحاضرنا، لذا ينبغي علينا التركيز على مختلف المناهج التاريخية والاجتماعية والفينومولوجية والاثنومثدولوجية التي تركز على استعمال مناهج الحياة اليومية التي تفسر الأحداث التاريخية في سياقها الاجتماعي وتفك الشفرة بعيدا عن البحوث الكمية السقيمة والنظر إلى علم الاجتماع بوصفه تكنولوجيا اجتماعية ودراسة تطبيقية.

2. آفاق تتعلق بتحديد طبيعة الوضع الراهن للمجتمع العربي:

من القضايا المهمة التي يجب أن يعنى بها علم الاجتماع العربي المعاصر تحديد مفهوم المجتمع العربي المعاصر وبناءه الاجتماعي، ومكونات نظامه الاجتماعي، وما علاقة الدولة بالمجتمع، وما طبيعة السلطة فيه، هذه الموضوعات المهمة في حقل هذا العلم قليلا ما تناولتها الدراسات العربية بالعمق المطلوب كدراسات هشام شرابي عن المجتمع العربي والسلطة الأبوية، وعبد الله العروي عن نماذج التنمية في المجتمع العربي في القرن العشرين، وسيمير

أمين عن التنمية اللامتكافئة، وسعد الدين إبراهيم عن النظام العربي الجديد، وبرهان غليون عن الدولة في المشرق العربي، ودراسات مركز الوحدة العربية والتي تطرقت لقضايا عديدة للمجتمع العربي.

3. آفاق تتعلق بدراسة هموم الإنسان العربي والمشاكل الاجتماعية :

لقد غيب علم اجتماع عن الحياة اليومية للإنسان العربي و حان الوقت لأن يخرج برجه العاجي و ينزل إلى الشارع و يتحول من علم اجتماع العيب إلى علم الاجتماع الناس و يرتبط بواقع الحياة اليومية و التاريخ فيحاول فهم هموم الناس و أمالهم الظاهرة في لغتهم و ثقافتهم و فكركم و في حياتهم يقضيه و يحول هذه الهموم إلى قضية و مشروع كدراسة حجم البؤس و الدمار الذي أصاب الذات العربية نتيجة الفكر الأبوي السلطوي ومشاكل المرأة و البطالة و الثقافة، والشباب و المسنين و الفقر و العنف و الطلاق والزواج، و الهجرة و صراع الأجيال الفساد بكل أشكاله و مشكلة الأقليات و الإثنيات و الطوائف، و القيم و التغير القيمي و الحركات الاجتماعية والدينية و السياسية و البيئية (ابوبكر أحمد باقادر ص 173، 2000)

4 آفاق تتعلق بتكوين رؤية اجتماعية للعصر :

يعاني مجتمعنا العربي من ضبابية رؤيته الاجتماعية للعصر، هذه المشكلة زادت العولمة تفاقمها وتشكل ضغطا على هذه المجتمعات وتريد أن تفرض نظامها على العالم حتى صرنا غير قادرين على تطوير رؤية أو استراتيجية لمواجهة العصر بل حتى التيارات الموجودة على الساحة الغربية تجتر القضايا نفسها التي مضى عليها الزمن مما جعلنا نعاني من التبعية لما يقدمه الغرب ، لكن عصر التبعية قد انتهى و حل محله عصر الندية أو الهيمنة، فإما أن تكون ندا أو عبدا .

إذن فأفاق علم الاجتماع تكمن في فهم روح العصر و تطوير رؤية اجتماعية مستقبلية و ذلك بدراسة اللحظة الراهنة لهذه المجتمعات و اللحظة المستقبلية بدراسة الحراك المعرفي . (ابوبكر أحمد باقادر ص 177، 2000)

5.آفاق تتعلق بتكوين هوية عربية معاصرة:

تعتبر الهوية بمثابة العروة الوثقى التي تجمع أمة من الأمم، وهي تعريف الأمة بذاتها، وشعور أفراد المجتمع بالانتماء بعضهم إلى بعض وأكثر من ذلك، إن الهوية الثقافية الجماعية هي ما تميز المجتمعات بعضها عن بعض، لذلك فإن آفاق علم الاجتماع تكمن في معالجة إشكالية الهوية العربية، أو ما يعرف بقلق الهوية.

إن مسألة الهوية كانت ومازالت مصدر قلق في كل العصور، بسبب أننا لم ندرك أن الهوية الجماعية بوصفها انتماء إلى ثقافة ولغة ودين وفكر معين لا تضيع، لكن تتجدد، وأن قوة الهوية تكمن في تجددتها وفي الحوار مع الذات والمجتمع والآخر، ولأن الثقافة تكون الهوية والذات والعقل، لذلك فإن تخلف ثقافتنا عن عصرها، يعني تخلف عقلنا عنه، هذا من جانب، ومن جانب آخر شغلنا أنفسنا بالدفاع عن هويتنا التراثية ونسينا المجتمع وهذا ما تسبب في تخلف الهوية عن المجتمع، لذلك فإن مهمة علم الاجتماع العربي هي السعي إلى تكوين هوية عربية جماعية من خلال تطوير هوية ثقافية اجتماعية، أما أساس هذه الهوية الجماعية فهو قيام نظام ثقافي قيمي يتشاطره الجميع، ويقوم على حقوق الإنسان وتكافؤ الفرص أمام الجميع(ابوبكر أحمد باقادر ص 179، 2000)

6. آفاق تتعلق ببناء مجتمع صالح:

من الأفاق المهمة التي يجب أن يسعى إليها علم الاجتماع العربي المعاصر، هي بناء مجتمع صالح يحترم حقوق الإنسان وكرامته، وهو الذي يقوم على التسامح والتعددية والديمقراطية وحرية الرأي وتقبل الآخر، ويقوم النظام الاجتماعي فيه على هذه المعايير، معايير العدالة والتضامن والمساواة، هذه المعايير تساهم في تحقيق التكامل الاجتماعي داخل المجتمع وخلق مجتمع للجميع، يكون فيه لكل فرد حقوق وعليه واجبات وله دور نشط يجب أن يؤديه، والتكامل الاجتماعي لا يعني أن يتكيف الناس مع مجتمعاتهم، وإنما هو محاولة لجعل المجتمع يتقبل جميع من يعيشون فيه (ابوبكر أحمد باقادر ص 179، 2000)

7. آفاق تتعلق بدراسة دور الدين في مستقبل المجتمع:

يعتبر دور الدين (الإسلام) مهم جدا في مستقبل المجتمع العربي، وهذا لكون الإسلام هو العامل الأساسي المكون للهوية العربية والفاعل والمؤثر في الحياة اليومية والعلاقات الاجتماعية، لذا فإن الحديث عن علم اجتماع عربي معاصر بعيدا عن الدين يعتبر ضربا من الخيال وتضييع للوقت، ولا يمكن لعالم الاجتماع العربي أن يفهم مجتمعه بعيدا عن الدين الذي يبصره إلى سبل تحقيق هذا الفهم، وكما يقول مُجَد قطب : " عالم الاجتماع المسلم حاشاه أن ينزلق إلى تصديق علم الاجتماع الجاهلي الذي ينكر أن الدين فطرة في النفوس، ولو قال به ألف عالم كدوركاييم² أو غيره من المفكرين، كما أن عالم الاجتماع المسلم لا يثقل على حسه الواقع المنحرف الموجود اليوم في الأرض، ولا يصدده عن ذكر الحق، سواء أعجب الحق الناس أو لم يعجبهم، واستجابوا له أو أعرضوا عنه (مُجَد قطب ، ص 166، 1998)

الاحالات والمراجع

-
- محمد، بامية (2015). العلوم الاجتماعية في العالم العربي أشكال الحضور، التقرير الأول للمرصد العربي للعلوم الاجتماعية،¹ المرصد العربي للعلوم الاجتماعية
- ابو بكر، أحمد باقادر (2006). عبد القادر عرابي، آفاق علم اجتماع عربي معاصر، دار الفكر، دمشق، سوريا.
- محمد، قطب (1998). حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، دار الشروق.
- احمد، خشاب (1981). التفكير الاجتماعي، دار النهضة العربية، بيروت .
- محمد، بامية (2005). العلوم الاجتماعية في العالم العربي اشكال الحضور، التقرير الاول للمرصد العربي للعلوم الاجتماعية.
- مهباشة، عبد الحليم (2014). التأصيل الإسلامي مقارنة إسلامية المعرفة، اطروحة دكتوراه تخصص علم الاجتماع و الديمغرافيا، جامعة سطيف. الجزائر.